٢ - قانصوه الغوري

سلطان مصر الشهيد

للأستاذ محمود رزق سليم

مهداة إلى حضرة صاحب العزة الدكتور عبد الوهاب بك عزام

الفصل الثاني

خاتمة سلطان

لله ما أروع الدهر ، وما أكثر عجائبه ، وما أقسى ما تقدم الأيام من عظات وعبر ، وما تحتوى عليه من صروف وغير

والدهر آونة يصفو لصاحبه ... حتى يعود فيحسو ماءه كدرا
يعطى ويمنح ما شاءت عوارفه ... ويسلب المرء كرها كل ما ادخرا

العادل الملك المزهى بدولته ... كبا به الملك حتى عاد فانحدرا
سعى إليه ولكن سعى مؤتمن ... ولم يقدر لمقبي دهره الحذرا

أيها الملك العادل طومان باى! ها هى ذى دولتك تولى ، وها هى ذى دولة أخرى تقبل ، وها هو ذا سلطان جديد يحتل عرشك ، ويجلس فوق كرسيك . فيبذل ويهب ، ويرق ويؤمر ، وينهى ويأمر ، وينفى ويعفو ، ويوطد دعائم سلطنته بالحزم والعزم ، وبالبر والوعد الحسن . يعاونه فى ذلك كثير من الذين منك ، الحاسدين لك ، الحاقدين عليك ، الذين ناصبتهم وقت زهوك ، عداء استحكمت حلقاته ، وجفاء زاد أمره واستشرى خطره .

ولقد أملى لك جهلك ، وضعف بصرك بالأمور ، أن تبطش بهم رجلا فى إثر رجل ، وتقتلهم أميرا بعد أمير ، وتفتك بهم صديقا فى أعقاب صديق ، مع أنهم جنود عرشك ، وحاملو كرسيك ، ومؤسسو سلطانك ، ومدعمو دولتك . ولكنك جعلت مسرح سلطنتك مذبحا تنحر فيه فحول رجالك ، بدل أن تلتمس منهم العون ، وتسترق قلوبهم بالود

هالهم الأمر ، ورأوا بأعينهم قرب مصارعهم ، وأنهم على وشك أن يلقوا منيتهم بين يديك ، فجمعهم الخطر المشترك ، وآثروا اطراح أطماعهم ودخلهم ، والضغائن الفاشية بينهم ، لكى يقفوا أمامك صفا واحدا شديد المرة ، حصين الثغرة . وقاوموك فهزموك وأسلمت نفسك للفرار ...

فماذا أفادك بطشك وصلفك ، وأجداك جورك وعسفك ، لكن تمكن منك الداء ، حتى نكلت بالأصفياء

وظننت دهرك لا يجيئك غدره ... والصفو من كلتا يديه متاح
فمضى وخلفك المذنب قلبه ... ولكل ليل بكرة وصباح

نصرك الأتابكى « قصروه » ، وأصفى لك وده ، ووهب لك مكنون حبه ، ونخل لك مخزون رأيه ، وتقدم أمام جنودك إلى باب السلسلة وسلم المدرج بالقلعة ، إبان نزاعك مع سلطانك وسلطان البلاد من قبلك الأشرف جانبلاط ، وقتما نقضت عهده ، وشققت عصا طاعته ، وطمعت فى الملك دونه ، فتقدم صديقك قصروه يعاونك وأنت فى شدتك ، ويؤازرك وأنت فى ضيقك ، ودلف إلى القلعة وكان بها جانبلاط معتصما ، فحطم بابها وسلمها ،

إليه الرسالة من أن القصد لغة التخاطب باللسان ، لا لغة الإبداع بالقلم ، أما اعتبار الحفظ ، فإن موسيقى الشعر تنغم الإحساس فتستقر الألفاظ فى واعية الشعور ولا ينالها النسيان كالنثر !

(بور سعيد) أحمد عبد اللطيف برر
المدرس بالمدرسة الثانوية

حول طبقات الخالدين والمستشرق لاووست

تفضلت الرسالة فنشرت لى كلمة حول هذا الكتاب سقط منها فى العنوان اسم المستشرق لاووست ، زميل الدكتور الدهان فى تحقيق هذا الكتاب

وإنى إذ أسعى لاستدراك هذا فى هذه الوجزة انتهزها فرصة سانحة لأكرر الشكر للمستشرق لاووست مثنياً ، الثناء كله على هذا الجهد الخالد القيم

ابراهيم الابيارى

واقتحم رحابها ، وهيأ لك بذلك أسباب النصر ، ومهد لك السبيل إلى الملك . وكان وقت جهادك إلى جانبك ، شديد التواضع جم المروءة ، نزل به حب الجميل وإسداء المعروف ، إلى عالم ينزل إليه أمير . فكان ينفق على حفر الخنادق من ماله ، ويعاون على إنجاز حفرها بيده ، ويحمل الأتربة على كتفه ورأسه ، حفزاً لهمم العمال ، وحثا لحماسة الجنود ، وضربا للأمثال ...

فماذا كان نصيبه منك ؟ حقا لقد خلعت عليه الأتابكية — قيادة الجند — أرفع مناصب الدولة بعد السلطنة ، وعظمته ، ولكن تعظيم الخادع الماكر . حتى إذا اطمأننت إلى نفسك ، ووثقت بحولك وطولك ، بطشت به بطشة الجبار الفاجر . وهو أكثر ما يكون ثقة بك ، واطمئنانا إليك ، واعتمادا عليك ، وبعداً عن التفكير فى خيانتك . فوكلت به من قتله

وكذلك فعلت بالسلطان جانبلاط ، بعد ما أمنته واستسلم إليك ، ووعدته بأن تضفى عليه أسباب الأمن والحرية . فماذا كانت عاقبته وعاقبة وثوقه بك ؟ نفيته إلى الأسكندرية ، ووصيت به من خنقه فى سجونها ، دون جريرة إلا ضمه عن مناوأتك ، وانفضاض الطامعين من حوله إليك

ومن قبل هذا بطشت بالظاهر قونصوه ، وغدرت بالناصر محمد بن عثمان ، ونكلت بأرملة السلطان المستسلم جانبلاط ، ولم ترع لأنوثتها حرمة ، ولا لكبر سنها مكانة . مع أنها سرية ملك وزوجة ملك ، وأم ملك ، وأخت ملك ... فأرهقتها بما طلبت منها ، وأنقذت نفسها من كيدك ، بآلاف من الدنانير قدمتها إليك . . .

ألا فارقب الدهر وهو يدير للقصاص ... وستلقى جزاءك .. لا مفر ...

* * *

قبل عيد الفطر عام ٩٠٦ هـ ، وفى إحدى الدور النائية فى أطراف القاهرة ، اجتمع عدد من أمراء السلطنة ، يتزعمهم الأمير ان : قيت الرجبى ، ومصرباى . وكان من بينهم طقطباى ، وتمرباى ، وكرتباى ، وخشكلدى البيسق ، وغيرهم وغيرهم ، ممن ينقمون على الملك العادل ، وممن هددهم بالقبض عليهم ونفيهم ...

قعدوا يتذاكرون بينهم فيما صارت إليه أحوال هذا السلطان ، ويقلبون وجوه الرأى فى تصرفاته ومواقفه إزاءهم ، واشتطاطه فى معاملتهم ، واجترائه فى العدوان عليهم ...

قال أحدهم : لقد تفاقم شر هذا الطاغية ، وأغرم بسفك الدماء وإهدار الأبرياء ، حرصا على دولته ، وزعما منه أننا خطر عليها . وقد أصبح بطشه قريبا منا ... نحن الأحياء ...

قال آخر : وإن لنا فيما اجترمه فى جانب الأتابكى قصروه صديقه لعبرة ... والعاقل من اعتبر بغيره ، وإننا إذا أرخينا له فى الزمام ، ولم نهنه من غربه ، ونحد من غضبه ، تطاير شرره حتى يحترق به ...

قال آخر : ألا نقدمون له النصيحة خالصة ، ونطلبون إليه فى صراحة وحزم أن يكف عن سيئاته ، ويقلع عن خطيئاته ... أو لكم مقترح آخر ؟

قال آخر : إن مثله لا ينقاد للنصيحة . ولا يأمن ناصحه من مد مغبة غدره . فقد الناشت نفسه ، واختلط حب الفتك بدمه ولحمه ، وباغ به سوء الظن مبلغا وخيما ... ومثله مثل الظامئ الصادى ، إذا شرب من ماء البحر ، فلا تقع غلة ، ولا روى ظمأ ، بل ازداد أوامه ، واشتد هيامه ...

قال آخر : إذاً . لا بد من تدبير أمر حربه . . ولا بد من إزالته من الطريق ! فهل لدينا من القوة ما يكفى لنجاح هذه التجربة ... ؟ وأنتم تعلمون أنه نفى جماعة منا إلى قوص ، منهم جان بردى الغزالى ، وقرقماس قرا ، وقايتباى . وهم من القوة والشجاعة والدربة ، والرأى ، بالمكان الذى تعلمون ... لقد قيل إن بعضهم فقد فى الطريق إلى منفاه ... ولم نظفر بعد بخبر عنهم ، لذلك ترون أننا فى حاجة قصوى إلى إعداد العدة ولم الشمل وجمع العدد الكبير المستطاع إلى جانبنا ... ثم ... ثم علينا أن نغرى المترددين والوجلين حتى ينحازوا إلى صفوفنا ...

إن العادل لا يزال لديه جمع كبير من المماليك السلطانية ، ومن المماليك « العادلية » وهم مماليك الأخصاء ، وحوله عدد آخر من الأمراء الذين اصطنعهم بالمنصب والمال والهدية ، ومنهم الأمير طراباى الشريفى رأس النوبة . إنى أعتقد أن طراباى يبتغى بذنبه لمنصب الأتابكية . . وقد وكل السلطان إليه أن يقوم

بمهامها ريثما يعين لها أميرا . ولعله يكون طرابای نفسه ...

قال آخر : لقد بلغني أن الأتابكية ستكون من نصيب الأمير قانی بردی الدوادار الثانی ... فهو المنافس الوحيد الخطر لطرابای.. فهو من عصبة العادل وخواصه ، وأشعر أن طرابای بدأ يتململ من العادل بسبب إيثاره لقانی بردی عليه . . ومن هنا يمكن اصطناعه ؛ وتستطاع استمالته إلى صفوفنا

قال آخر : لو كان أمر طرابای كما تقول ، لما جمع جنده وأعوانه أمس ، واصطحب عددا من الأمراء الطامعين أمثال : أنس باي، وبيبرس البهلوان ؛ ومعهم الوالی والشرطة . لقد طاف هؤلاء جميعا بعد عشاء أمس ، يفتشون المنازل ؛ ويفحصون سكانها ، ويغلظون القول للناس ، بحثا عنا وطمعا فی كشفنا والقبض علينا وتسليمنا لهذا السماح . . ولو تم الأمر على ما يهوى طرابای لتم هلاكنا ...

قال آخر : إن طرابای فی موقفه هذا ، يمسك العصا من وسطها ، فهو يقوم بمهام منصبه فی ظاهر الأمر ، حتى لا يسرع إليه العادل فيتهمه ويقضی عليه . والعادل يأخذ بالظنة ويستمع للغربة ... وبذلك ينجو طرابای من كيده وغدره ، فی حين أنه حانق عليه لأنه علی وشك أن يختص الأمير قانی بردی بمنصب الأتابكية دونه . ومن هنا نستطيع أن ندخل إليه من هذه الثغرة فنوسع فيها ، حتى نحمله إلى الانضمام لجماعتنا . وليس ببعيد أن تثور ظنون العادل ضده بمدفرار الأتابكية من يديه ، فيتهمه ويبطش به . فإذا لم يسرع طرابای منذ الآن باختيارنا والانحياز إلينا ، فقد تضيع الفرصة منه لدى الطرفين ، ثم لا يجد من ينهض لمعونته حينما يقف وحده فی الميدان. أما الآن فالفرصة مواتية له.. أو كونی أتصل به وأدبر لكم أمره

قال آخر : لا تنسوا أيها الرفاق أن تضعوا فی حسابكم مماليك جانبلاط ، ومماليك قصروه . فإن سخطهم الشديد علی العادل يسبب فتكه بحميديهم ، نستطيع استغلاله لقضيتنا . فاعملوا علی ضم صفوفهم إلى صفوفنا . وادعوا إلينا كل نافر من ظلم العادل وجوره ..

قال آخر : إذا انصرفتم أيها الرفاق ، فليكن كل منكم علی حذر ، وليكثم الأمر جهده ، حتى يتم تدبير جميع أطرافه . وقد يبعث العادل فی طلب أحدنا – ومناسبات الاستدعاء كثيرة فی هذه الأيام – ثم يقبض عليه ويبطش به . فلنكن إذا علی حذر..

انفض هذا المؤتمر ، وانصرف أعضاؤه إلى تدبير الأمر حسبما اتفقوا . بينما كان السلطان العادل قد أهمه أمر المختفين من الأمراء، وأثقل علی الناس بالبحث عنهم . وساءت ظنونه فی عدد آخر من الأمراء والمماليك . فقصد يدبر وسيلة للبطش بهم والقضاء عليهم

وفی أحد الأيام كان القراء يختمون البخاری فی القلعة ، وبهذه المناسبة أقيم حفل عظيم ازدان بمن فيه من العلية والرؤساء ، ومنهم قضاة الشرع وعدد من الأمراء

حينذاك أرسل الملك العادل فی طلب الأمير قانصوه الغوری والأمير قيت الرجبی ، ليتم بهما عقد الحفل ونظامه . فلم يلبيا الدعوة ، وأحسا بما يكمن فيها من الغدر ، وشعرا أن الفرصة حانت للصراع

أسرع الغوری وقيت إلى الاجتماع بأعوانهما من أمراء وجنود، وأذيع بينهم جميعا أن السلطان العادل قد اختار فرصة العيد للتنكيل بهم جميعا . فليدافع كل فرد منهم عن حياته ضد المعتدی الأثيم

ثارت ثائرتهم ، وتجمعت أحشادهم ، ووفد كل أمير بخاصته من جنده

وفی يوم الأحد آخر رمضان ؛ شهروا سيوفهم ، وشرعوا رماحهم ؛ ولبسوا دروعهم ؛ وركبوا جيادهم ؛ واستعدوا للنزال

وقد انحاز إلى جانبهم جملة من الناقمين ، وعدد غير قليل من الأمراء الهاربين والمختفين . وزحفوا إلى القلعة وفيها العادل ..

وأهاب العادل بأمرائه وجنوده أن يجتمعوا بباب السلسلة ، فاجتمع عدد قليل منهم الأمير طرابای الشريفی ، وأنس باي . وقرقماس ، ومعهم جملة من المماليك السلطانية. فوقع بين الفريقين صدام يسير ثم انحاز كل عن غريمه . .

فی ذلك الحين كان الأمير طرابای قد استجمع قواه ، وعملت الدسيسة فی نفسه عملها . . ففر من لدن العادل ومعه جمع من الأمراء ، فتبعهم عدد من الجنود فارين إليهم ، وذلك عند الغروب

أسقط فی يدی العادل وأيقن أنه مغلوب لا محالة، وأن مصيره دنا . فرأى أن يودع عرشا لم يجلس عليه إلا قرابة ثلاثة أشهر وعشرة أيام ، وعينه باكية ونفسه واجمة . ورأى أن ينجو بجلده فی طی الليل ، وأن يختفی عند بعض خاصته وخلصائه ، حتى

لا يمرقه أعداؤه إربا إربا . . فنزل من القلعة والظلام يستره ، يتحسس طريقه متفكرا كأوضع نكرة فى رعيته ، وأصبح حسبه من الملك أن يملك إهابه

أما قيت الرجبى ومن معه فقد دهموا القلعة بعد قليل ، وملكوا زمام الأمر فيها ، ولما علم الجند فرار العادل استباحوا لأنفسهم الهجوم على مخازن المرة والسلاح والاصطبلات السلطانية ، فنهبوا منها الشئ الكثير

أخذوا الأمراء يتشاورون توا فى تعيين سلطان جديد . وبعد لأى تم اختيار الأمير قانصوه الغورى — على نحو ما وصفنا — وتمت بيعته فى صبيحة عيد الفطر ، ومن ثم سار موكبه ، ونعم القاهريون بمرآه . .

استوى الغورى على عرش البلاد ، وتسلم مقاليد السلطنة ، وشمل زمنا بموا كبه ، وبالخلع والمناصب التى أخذ يوزعها على أنصاره ، تهدئة للخواطر ، وتسكينا للفتن

غير أنه وأعوانه من الأمراء ، كانوا ينامون على جمر الغضا ، ويتقلبون على فراش القلق والحيرة والحذر . ويعتقدون أن العادل مادام على قيد الحياة ، فهو خطر دائم جاثم يهدد سلطانهم وحياتهم

وفى يوم ، التأم شمل الأمراء عند سلطانهم الغورى ، وفيهم قيت الرجبى ، وقد صار أتابكيا ، ومصرباى الدوادار ، وطرابای رأس النوبة ، وجان برى الغزالى المحتسب ، ومعهم والى القاهرة وآخرون

فوجه السلطان الغورى حديثه إلى أتابكية قيت ، وقال :

— السلطان : أيها الأمير الكبير ! ألم يأن بعد للجند الثائرين أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويكفوا عن غلوائهم ، ويراجعوا جانب العقل والحزم على الطمع والفتنة ؟ إن الخزانة والحواصل السلطانية لا تستطيع الآن أن تفى بجميع ما يطلبون . ألا ينتظرون حتى تستقر الأمور ، وتهدأ الأحوال ... وحتى تشحذ الهمة ونعيد النظر فى وسائل تدبير المال ؟ ثم نجيبهم إلى ما يطلبون

وإننى فى الوقت الذى يجتمع فيه المال والطعام والكسى لدى لن أدخر وسعا فى الإغداق والبر ، ولن أقصر فى الوفاء بالرواتب ، وإن أتقاعد عن التعويض عما فات

— الأتابكى قيت : إذا بذل لهم مولانا السلطان وعده الكريم وضغطنا نحن الأمراء عليهم باللين والقول الحسن فسيكفون حتما عن ثورتهم . وأعتقد أنهم يدينون المقام الشريف بالطاعة والولاء ، أما نحن فسنبذل قصارى جهدنا فى سبيل تهدئة الفتنة محافظة على الخواطر السلطانية الشريفة

السلطان : أنت تعلم أيها الأمير — أن أمامنا مشكلة كبرى لم تحل إلى اليوم . وقد انصرم شهر شوال ولم نضع لها حلا . تلك هى مشكلة اختفاء العادل ... ينبغى أن يؤتى به إلى هنا حيا كان أو ميتا . ولعل الماكر الخبيث له ضلع فى ثورة الجند وفتنتهم وتحريضهم على طلب المتأخر من أعطياتهم ورواتبهم

— الأمير مصرباى : أجل يا مولانا ! إن للعادل أعوانا وأنصارا يعمل معهم فى الخفاء ، ويدبر الأمر للعودة إلى السلطنة بعد أن انتزعت منه انتزاعا . ولكن هيهات ...

إنه يجتمع بهؤلاء الأعوان والأنصار فى ظلام الليل الدامس ويسودون سطورا حاضة على الثورة ، ويبذلون فيها الوعود السخية للجند ، وينثر عليهم دراهمه ودنانيره شفاها ، ربما يعود ... ويهب لكل واحد منهم مائتى دينار ، وفرسا مطهمة . ويتوب إليهم مما جنته يداه . ويعدهم بأنه لن يعود فيهم إلى سيرته الأولى ، وسيرعى العدالة حق الرعاية ، ويدفع الرواتب ، ويجزل العطاء . ويفصل فى الأمور برأيهم ...

— السلطان : أمر مدهش ، وأخبار عجيبة ... من أتى لك هذه المعلومات أيها الأمير مصرباى ؟ وكيف يصمت والى القاهرة على هذه الفتن ، ولا يبحث عن مصدرها ويبطش به بطشة نكراء . . ؟

الوالى : إن ما يقوله الأمير مصرباى صحيح يا مولانا — فقد عثرنا بالفعل عند سوق السلاح على أوراق مكتوبة بهذا المعنى ، معلقة على الجدران ، رجاء أن يقرأها المارة من الجند ، فيكون لها أثرها فى نفوسهم ... ولكنا نزعناها سراعا ، وأخذنا طريقنا إلى البحث عن مصدرها

— السلطان : مصدرها ؟ عجبا ! إن مصدرها معروف لا حاجة إلى تبيينه ... إنه العادل المخلوع بلا شك . فلماذا تقصر فى البحث عنه إلى اليوم ؟ ومن العار أيها الوالى أن تتهاون فى القبض عليه إلى الآن . فلا بد من الوصول إليه بأى ثمن . .

طرابای : الواقع يا مولانا أننا لم نقصر فى البحث عن العادل ، طفت القاهرة مع الوالى وشرطته ، ودهمنا منازل كثيرين من

أصدقائه ، وهجم الوالى على بيت قاضى قضاة الحنفية برهان الدين السكرى ، وهو من خاصة العادل وخلصائه . ثم آل أمره إلى القبض عليه ، فحبس فى دار الأتابكى قبيت ، وقد سمعنا أن العادل أودع لدى هذا القاضى مالا ، غير أن مولانا السلطان قد أمر بالإفراج عنه . ثم دهمنا أمس منزل سيدى على بن السلطان المؤيد أحمد ، وقد قيل لنا إن العادل يختبئ عنده ، ولكننا لم نعثر له على أثر ، وفتشنا جملة من المنازل وعدداً من الزوايا والأماكن ولا نزال نجد فى البحث عنه فى كل مكان ، وسنعثر عليه بعون الله ، وبفضل رضا مولانا السلطان

السلطان : بارك الله فيك أيها الأمير طرابای ، لا ننسى لك أنك كنت فى مقدمة الأسباب التى أدت إلى هزيمة العادل ، ولنا الأمل فى أن يتم مصرعه على يديك ، أو على يدى الأمير مصرباى

مصرباى : إذا أذن مولانا السلطان فأطلق لى عنان العمل كما أشتهى ، فقد أوفق فى العثور على الضالة ، وأنهى إلى مقره الشريف خاتمة هذا الطاغية

السلطان : إنك مطلق الحرية ، تصرف فى أمره ، وافعل ماتشاء

انفض الجمع . وكان اختفاء العادل حديث أهل القاهرة طول شهر شوال ، لم يهدأ لهم فيه لسان ولا سكن خاطر . ومما أثار ثائرة الحديث ، ما كان يقوم به الوالى وشرطته ، وغيره من الأمراء والجند ، من دهم البيوت ومفاجأة أهلها بحثا عنه ، والأمراء فيما بين ذلك لا يأمنون المسير إلا بين رجال من حرسهم يحيطون بهم ، ولا يطيب لهم رقاد إلا على ريبة وخوف وهكذا عاش الجميع عيش قلق وهم ، شهرا وبعض شهر

وأطلق الأمير مصرباى عيونه وأرصاده يتسقطون أخبار العادل . فترامى إليه أن العادل يجتمع مع خاصته ليلا ، ويتوارى عنهم نهارا ، ولا يعرف مقره أحد من أعوانه . وأن ممن يجتمع به جانى بك شاد الشراب خاناه ، وجانى بك الشامى

وكان جانى بك الشامى يسكن على مقربة من دار الأمير مصرباى . فبعث الأمير إليه وإلى رفيقه ، وسألهما عن العادل ومكانه ، فأنكروا معرفة مكانه والاتصال به . فشدد الأمير بهما النكير ، وهددهما بالعذاب الأليم حتى أيقنا بالهلاك . فلما رأى الخوف قد استقر فى نفسيهما ، ونطقت بالهلع عيونهما لان لهما فى القول ، وبذل لهما الوعد بالعفو والمال والجاه . ولمح لهما أن السلطان سيعرف لهما بدهما فيرقيهما إلى الصف الأول من صفوف أمرائه . وهكذا جعلهما بين خوف ورجاء ؛ خوف لا يستطيعان دفع شره ، ورجاء هما أحوج إلى خيره وبره

حينئذ اعترفا لمصرباى بأنهما يجتمعان بالعادل بين الفينة والفينة . فقال لهما مصرباى : إننى أعتبركما صديقين مخلصين ، وعونا للسلطان على عدوه . فلنضع معا خطة حكيمة ، ولنحكم الشباك حتى لا يفلت منها الصيد

فقالا له : اقترح ونحن نطيع وننفذ

فقال مصرباى : زينا للعادل أنكما وأعوانكما تدبرون له أمر العودة إلى السلطنة ، وأن كثيراً من الجند قد انضم إليكم ، وأن الفتنة ضد السلطان الثورى قد زاد ضرامها ، وأن المنشورات الثورية التى تذيعونها آتت أكلها ، وأن الجنود على وشك إعلان السلطان بالعصيان والقتال ، وهم فى حاجة إلى قيادته ...

ثم ليأت العادل إلى دار جانى بك الشامى عشاء فى ليلة نتفق عليها ... ثم خذوا فى الطعام والشراب إلى هدأة من الليل ، وألقوا فى روعه أن ينتقل إلى دار الأتابكى جرباش كرت ، المجاورة لدار جانى بك ، وبها سرداب سرى ينفذ إلى دارى ... فيزحف مع خاصته من هذا السرداب حتى يصل إلى ، فيفتاني ... ومن ثم يطيب له الزحف بمجموعه المنتظرة على القلعة فيملكها ... ثم اتركانى أدبر بقية أمره ..

انصرف الرجلان . وفى عشاء الإثنين ١٣ من ذى القعدة ، وفد العادل على منزل جانى بك الشامى مسرفا فى الأمل ، بهجا بدنو عودته إلى عرشه . فتبسط له صديقاه فى الحديث . ومدا له الموائد الحافلة ، وضربا له نصف الليل موعدا للهجوم على منزل مصرباى . وبينما هم فى لهوهم وترقبهم إذ دهم المنزل الأمير مصرباى بجنوده .. فأحس العادل بالخيانة وأيقن بالتلف ، ولم يجد حوله من يدفع عنه . فوقف وحده فى الميدان يذود عن نفسه ... ولم يجد بدا من الفرار ، فركض إليه جاهدا إلى أعلى حائط فى المنزل ، وقذف بنفسه إلى خارجه نحو الأرض ، فكسر فخذه . وهناك تلقاه أحد مماليك جانبلاط ، فهوى على رأسه بسيفه فاجتزه ... وعدا عليه جملة من المماليك فأثخنوا فيه بسيوفهم انتقاما منه وشفاء لما فى صدورهم ..

ثم حمل رأس العادل إلى الأمير مصرباى ، فوضعه فى طبق من النحاس ، وسيره إلى الأبواب السلطانية ، وحاملوا الشاعل من حوله ينادون :

« هذا جزاء من يسفك الدماء ويقتل الأبرياء » .

للقصة بقية

محمود رزق سليم